نبض فلسطينيّ

داوود سعيد/ الجزائر

بعد يوم طويل من العمل وإنجاز عشـــرات الملفات المتراكمة داخل تلك الإدارة اللّعينة، يعود ذلك الرّجل الطّويل ذو اللّحية غير المرتّبة بمشـــيته المتعرّجة قاصـــدا المنزل في ســـاعة متأخّرة من اللّيل، تسـتقبله زوجته بابتسـامتها المعهودة، لكن عضـلات وجهه تأبى الاسـترخاء أمام ضـحكتها وتُبقي على وجهه العابس. مثل كلّ مرة يعود فيها إلى منزله، يتناول عشـــاءه ويطبع قبلة على جبين ابنه الوحيد ذي العام والنّصف، يصعد إلى غرفته المنظّمة من طرف زوجته ويستلقي في سريرهما ممسكا هاتفه مطّلعا على آخر الأخبار التي تحدث في العالم - الّذي أصـــبح بفضـــل التّطور التّكنولوجيّ مثل قرية صـــغيرة- تاركا زوجته في المطبخ تغسل الأواني وتنظّف آثار العشاء.

كان العالم في ذلك اليوم هائجا جدّا بسبب قرار ترامب التّعسفيّ في حقّ الفلسطينيّين وترسيمه للقدس عاصـمة للاحتلال... على كلّ،هذه الضّـجّة لم تكن تثير اهتمامه خاصّـة وأنّه يكره الفلسـطينيّين والعرب تماما، كان يُخبر النّاس دوما بأن حلمه الوحيد هو زيارة إسرائيل بلد العلم و التّكنولوجيا، وأنّ الفلسطينيّيين ليسوا إلّا مجرّد أوغاد باعوا قضيتّهم ويستعطفون العالم من أجل ممارسة قذارتهم.

فور انتهائه من رؤية آخر مسـتجدّات السّـاحة الّسـياسـية، خلد إلى نومه دون أن ينتظر حتّى زوجته ليقول لها تصبحين على خير، كان حقّا بارد المشاعر.

ما إن غطّ في النّوم حتّى شـعر بدوار شـديد، رأى دوّامة من ألوان قوس قزح، وجد نفسـه وسـط طريق معبّد بالرّمال، والشـمس في أوجّ ظهور لها، ما إن مشـــى مســـافة مائة متر حتّى عثر على لافتة مكتوب عليها منطقة منصـورة الخيط، هنا أحكمت الحيرة قبضـتها عليه فقد كان في قرارة نفسـه يعلم أنّه يعرف هذه المنطقة لكن ذاكرته قد خانته، دخل تلك القرية يستكشفها لكنّها كانت خالية على عروشـها، زد على ذلك أنهّا تبدو قرية بدائيّة فقد كانت البيوت مبنيّة بالطّين، بل ولم يكن هناك أيّ أثر للإســـمنت، أو أيّ شـــيء يوحي للنّاظر أنّنا في العام 2018... كان الوقت ظهيرة وكلّ النّاس في منازلهم مختبئين من حرّ الشّمس، ومن دون سـابق إنذار رأى دبّابات قادمة باتّجاه القرية إضـافة إلى جنود يمشـون وهم ممسـكون برشّاشاتهم، بكلّ خفّة اختبأ وراء جدار موجود على حافّة القرية، وبدأ يراقب الجنود الّذين اقتحموا القرية بكلّ قوّة وبدأوا في إخراج الرّجال والنّســـاء والأولاد من منازلهم، كان الرّجال يُقتلون وأمّا النّســـاء فكنّ تُغتصبن أمام أعين العامّة،و داخل المنازل كان يُسمع صراخ الأطفال وبكاؤهم، كان صراخهم يدلّ على أنّهم من العرب ، لكن أين هو بالتّحديد؟ في تلك اللّحظة تذكر ذلك البائس كل شيء ... مايحدث أمامه هو مجزرة "منصـورة الخيط" التي ارتكبها الصّـهاينة في حقّ الفلسـطينيّين الأبرياء العزّل، لقد عاد به الزّمن

إلى 18 يناير من عام 1948 بعد أن علم ذلك، تملّكه ذعر وخوف شـــديدان، بدأ يتأمّل جنود

الاحتلال وهم يقتلون كلّ شخص.

استجمع قواه ثم نزل وسط ساحة القرية، أراد أن يتّجه للجنود لكن أصابته رصاصة قبل أن يقدم على أيّ شيء، أحسّ بدوار قويّ ثم سقط مغميّا عليه، داخل غيبوبته عادت إليه - من جديد- تلك الدّوّامة الملوّنة بقوس قزح، ماهي إلّا لحظات حتى وجد نفسه وسط سوق مليء بالنّاس، لم يبتعد كثيرا عن تلك القرية حسب ظنّه، كونه مازال يستمع إلى روّاد تلك السّوق وهم يتحدّثون باللّهجة الفلسطينيّة، بعد جولة خفيفة وسط السّوق واحتكاكه ببعض النّاس استطاع أن يعرف أنّه في "نحالين" تلك المنطقة الواقعة في القدس المحتلّة، بعد زمن قصـــير ســـمع هتافات النّاس، نعم لقد كانت هناك حرب بالحجارة بين أهالي المنطقة وجيوش الاحتلال على حدّ قول أحد الباعة هناك، قبل أن يسمع دويّ الرّصّاص في السّماء، اتّجه ببطء نحو مصـــدر الرّصـــاص متوخّيا حذره، إلى أن وصـــل شـــارعا طويلا وقف في أوّله وهو يلاحظ الصـــراع في أوجّه بين الفلســـطينيين الّذين يرمون بالحجارة من فوق السّـــطوح و جنود الاحتلال الّذين يرمون بـالرّصـــــاص في كل مكان وجهة، كان يُدرك أنّه مجرد حلم، لذلك حاول أن يُبرز قليلا من شجاعته، فقام بكلّ رشاقة وصعد نحو سطح أحد المنازل ورشق جنود الاحتلال، ماكان يراه كان كفيلا بأن يجعله يدرك مدى معاناة الفلســطينيين وآلامهم الّتي يندى لها الجبين، ما كان يراه من جنود الاحتلال في تلك اللّحظات القليلة من سـبّ وشـتم و إطلاق للنّار في مختلف الجهات كان يعبّر وبكل وضـوح عن وحشـيتهم ولا إنسـانيتهم، أخذ يرشـقهم بالحجارة بكلّ ما أوتي من قوّة ...لكن رصـاصـة طائشـة من أحد الجنود قتلته افتراضيا ودفعت به داخل تلك الدّوامة متعدّدة الألوان أين وجد نفسه هذه المرّة وسط المسجد الأقصـى، بدأت حاسـة سـمعه تتعوّد على المكان شـيئا فشـيئا حتى أدرك أنه وسـط خطبة الجمعة، كان الخطيب غاضـبا بشـدّة، تيقن أنه يتحدّث عن عزم ترامب على اتّخاذ القدس عاصـمة للكيان الصّـهيونيّ وغضـبه الشّـديد لذلك واسـتنكاره سـكوت العرب، على غير ما وقع له في المرّتين الماضـيتين بدأ ذاك التّعيس يتذكّر زوجته وبروده تّجاهها، لم يفهم حتّى كيف تبادرت إلى ذهنه لكنّه كان يدرك حق

الإدراك أنّه تجاهلها أكثر من اللّازم، فاجأه وهو غارق في أفكاره صـوت الخطيب وهو يقول :قوموا إلى صـلاتكم يرحمكم الله، بعد نهاية الصّـلاة وجد المصـلين يهتفون بنصـرة الأقصـى ثم بدأت الاشـتباكات، ما أثّر في قلبه كثيرا رؤية النّسـوة اللّاتي نهضـن من أجل نصـرة الأقصـى، ومواجهتهنّ لشـرطة الاحتلال الظّالمة.

أفكار كثيرة بقيت تدور في رأسه بين اكتشافه لحقيقة معاناة الفلسطينيين وندمه على إهمال زوجته، وغضبه من الإسرائيليين الأوغاد، وسط تلك الأفكار المتراكمة داخل رأسه، أحسّ بصوت عذب يناديه ويوقظه من النّوم، لم تكن دوّامة متعدّدة الألوان، بل زوجته بشحمها ولحمها توقظه لأداء صلاة الفجر. بعد أن استيقظ أمسك هاتفه ليرى السّاعة فإذا به يفاجأ بخبر عاجل:

- فلسطين تستقل وتطرد المحتل الصهيوني...

هنالك اختلط عليه الحابل بالنّابل، ولم يدرك أين يعيش. قال في قرارة نفسه:

- ربّما مازلت أحلم.